ضفدعة تسخر من داود

للأستاذ محمود شلبي

يعجبني من آثار الأقدمين . . .

ذلك الأثر القائل : «قام داود يصلي من الليل ، فوقع في نفسه أن أحدا لا يسبح الله تعالى في تلك الساعة مثله . فأوحى الله الى ضفدعة ، فقالت .

يا داود ظننت كذا وكذا ؟ ، فاعلم أني ومن ورائي سبعين ألف ضفدعة ، تسبح الله تعالى طول الليل على قدم واحدة ! »

يعجبني ذلك الأثر . . . لأنه بعيد الدلالة عميق الفكرة .

لأنه يكشف من غرور الانسان ، ذلك الذي يظن أنه مدار كل شيء ، وأن الأشياء كلها تدور من حوله .

وهذا الغرور من الانسان أصل في تكوينه ، ولا يفلت منه أحد من بني جنسه .

وهذا الغرور من ابن آدم غريزة طبيعية ، يقدر أن يبرأ منها في حياته :

ولها سببان يدفعانه دفعاً إليها .

الأول : الشيطان . . ذلك المخلوق الخارجي عنه ، المسلط عليه ، بقول الله تعالى « وعدهم . . . وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

ومن هنا ينشأ الغرور في الانسان .

ولكن ما هو هذا الغرور ؟ .

هو أن يعتقد الانسان خلاف الواقع ، بما يخيل إليه الشيطان ، وبما يزين في رأسه .

والثانى : ضعف الانسان الجبلى . . . الناشىء من قوله سبحانه « وخلق الانسان ضعيفاً » .

وهذا الضعف الجبلى ، يدفع الانسان دفعاً إلى الغرور ، بدافع النقص الذى فيه :

والقضية الآن بدأت تتجلى وتتشعشع .

فالغرور غروران . . . غرور من الشيطان ، وغرور من الانسان .

أما غرور الشيطان ، فشىء طارىء ، يطرأ على الانسان من خارج بمسة يوسوس إبليس :

وأما غرور الانسان . فهو من داخل . من باطن . ينبع من ضعف الانسان . وكلاهما خطران . وعدوان لدودان :

ويحضرنى هنا موقف إبليس من جسم آدم . حين خلقه الله صلصالا كالفخار ثم طوف إبليس من حوله : فلما رآه ذا جوف وأحشاء . علم أنه لم يلبث أن يتهالك .

لقد أدرك إبليس على الفور . حين رأى جسم آدم ملقى فى الجنة . قبل نفخ الروح فيه ، أدرك أنه مخلوق طبعيف يسهل مخادعته وإضلاله .

ورتب خطته على ذلك ، وكان تكتيكه مع بنى آدم كله تابعاً من هذا الفهم الأصيل .

وعلى هذا يعتبر ضعف الانسان التركيبى . هو الذى مكن ابليس من التسلط عليه .

وسنفصل ذلك تفصيلا جميلا .

أنظر إلى الانسان . . . نطفة دافقة تستقر فى الأرحام إلى حين . ثم يصورها الله كيف يشاء .

ثم يخرج الانسان إلى الحياة ضعفاً ، وعجزاً مطلقاً .

أما الضعف فهناك دليله النصي ، الذي يؤيد دليله الواقعي . .

أما النص فقوله « الله الذي خلقكم من ضعف : ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا ؛ وشيبة . . .

وقوله « حملته أمه وهنا على وهن . . . »

وأما دليل الواقع . فما نراه جميعاً من أمر المولود :

يولد عاجزاً عن كل شيء . عكس الحيوان الذي يولد قادراً بعض الشيء ، هو كتلة من اللحم المتحرك . لا يعلم شيئاً . ولا يقدر على شيء . ولا يستطيع شيئا .

فهو في حاجة إلى من يرضعه : وهذا أشد أنواع الضعف .

وحتى أمعاؤه لا تستطيع أن تهضم الطعام المألوف ولذلك جعل الله له لبناً سهلا مهضوما .

وتراه عجزاً تاما . . . وهو رضيع ، لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضراً .

فهو يحتاج الى أمه كي ترضعه وتلبسه : وتغطيه إذا نام . وتغسل جسمه إذا اتسخ : وهكذا . . عجز تام ، وجهل تام :

قال تعالى « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » ،

ثم يتطور هذا المخلوق العاجز : شيئا فشيئا : فيتطور معه اكتساب الصفات شيئا فشيئا :

فبعد أن كان جهلا تاما : يتحول الى علم نسبي .

وبعد أن كان عجزاً تاما : يتحول إلى قدرة نسبية .

وبعد أن كان عالة على أمه . يبدأ ينفصل عنها نسبيا .

وهكذا . . ترتفع طاقاته شيئا فشيئا .

حتى يبلغ مرحلة البلوغ . فيكون منه القدرة على الجنس .

وهنا يفرض عليه الله الفرائض، لأن طور البلوغ، طور اكتمال الشهوة طور انطلاق واشتياق، تحتاج إلى (فواصل) وتلك مهمة الفرائض.

ومايزال الإنسان يقوى ويقوى، حتى يبلغ أقصى درجات القوة.

ثم يلحقه الأصل الذي هو منه... الضعف... فما يزال يضعف، ويضعف حتى يتدلى فى كل شيء، وتكون الشيخوخة بوجهها الكئيب.

انهيار تام فى كل شيء...

قال تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً).

أحط أنواع العمر تلك الشيخوخة، يتساقط فيها الإنسان من قوته كما تتساقط الأوراق عن أغصانها.

إنها إعداد للموت... وتمهيد للفناء.

ذلك هو الانسان، يبدأ من ضعف وينتهى إلى ضعف.

حتى مرحلة الشباب، تلك التى يبلغ فيها شيئا من القوة، تعتبر مرحلة طارئة ولذلك لايلبث ابن آدم يرتد بعدها الى، طبيعة الضعف.

والإنسان ليس فقط ضعيفا فى بنيان جسمه المادى، إنما هو ضعيف فى صفاته المعنوية.

هو ضعيف فى شهواته، لا يصبر عن النساء. ولا تصبر النساء عن الرجال!.

ضعيف فى إرادته لا يصبر على طاعة. ولا يصبر عن معصية. ولا يصبر فى الله. ولكن يجزع، ويجمح الى الانطلاق دائما.

ضعف فى الايمان بالله، برغم الايمان، فاذا دهمته صروف البلاء، طار عنه ايمان، وتضعضع منه جنانه!.

ضعيف أمام المخلوقات التى تشاطره الحياة فوق الأرض... فماذا يفعل الانسان اذا صارعه أسد من الأسود؟.

ضعيف أمام الميكروبات والفيروس الذى يهاجمه ، وينشر فى جسمه . وقد يقتله وهو لا يستطيع له دفعاً ! :

هذا عن الضعف الجبلى . المجبول عليه الانسان .

فاذا عن الغرور ! :

هذا الضعف يدفع الانسان الى الغرور . أو هو الذى يدفعه عملا إلى الغرور : كيف هذا . ؟

تلك مهمة الشيطان . . أو هنا يأتى دور الغرور الشيطانى : أو دور الغرور الطارىء من خارج :

يعلم الشيطان من الانسان هذا الضعف : فيوسوس إليه . ويخوفه . فتضعف ارادة الانسان : ويستسلم له .

وكيف ذلك ؟ .

يعلم الشيطان أن الطفل ضعيف أمام أبويه . يراهما إلهين اثنين ، وكيف لا وهما أساس حياته . وأصل رعايته ؟ .

فتزين له أن هذين الأبوين هما الالهان المعبودان : ويجب عليه طاعتهما طاعة تامة .

فاذا قالا له اكفر : كفر ..

هل هذا يحدث ؟ .

نعم : بلى هو الحادث . وما كفر من كفر إلا من هنا . . . من قولهم . . إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون .

كيف كان اليهودى يهوديا الا بتوجيه أبويه له فاطاعها وتهود ؟ :

وكيف كان المجوسى مجوسيا . الا أن وجهه أبواه الى المجوسية فتابعهما :

قال صلى عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) .

ثم يأتي الشيطان الى الإنسان حين يبلغ، ويعلم منه أن الشهوة الجنسية تشتغل فيه اشتغال

فيوسوس اليه بالمرأة، ويوسوس الى المرأة بالرجل.

ويضعف الإنسان ويسلس قياده للشيطان، ويكون ما كان.

ويأتي الشيطان الى ابن آدم، ويعلم منه ضعفه أمام إغراء المادة، وعدم صبره عن حب المال

فيوسوس اليه أن قم إلى المال واجمعه، فهو سبيلك إلى السعادة، والعلو، والخلود.

ويضعف الانسان ويسرع إلى المال، ويجمعه مما هب ودب. ويكون منه جرائم وجرائم.

ويأتي الشيطان إلى الانسان في شيخوخته. ويخرفه من الموت. ويزين له الاستمتاع بحياته قبل أن يمضي.

ويضعف الشيخ. ويكون منه استسلام تام. ويأتي بالعجائب للاستمتاع بالحسان!.

وهكذا..: متعاون الرفيقان. الشيطان وضعف الانسان. على نفخ الغرور في الانسان..

يقول له الشيطان: من قال أنك ضعيف؟.

أنت عظيم، أنت أعظم إنسان. أنت أعظم مخلوق!.

ويصدق المسكين مقال الشيطان. ويحوله في باطنه إلى عقيدة راسخة:

ويوجد من الناس من يعتقدون هذا. ويفلسفونه، ويقولون: الأنسان مركز الكائنات. وسيد المخلوقات:..

بل وجد من يزعم أن الانسان هو اله هذه الأرض. واله كل شيء ولا إله هناك!!.

وينفخ الشيطان فى الانسان ، ويناديه من ماضيه . ويناديه من مستقبله ، والانسان يصدق ما يقول ، وينخدع بما يوسوس ! .

وقديماً خدع آدم من ضعفه حين قال له « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ » .

وصدق آدم وصدقت حواء . وكان ما كان .

وما زال الملعون دائباً على التغرير بأبنائها ، ليشفى غله . ويذهب غيظه :

« فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .

هذا هو الغرور . . هذا هو الوهم الذى يعيش فيه الانسان : بجنسيه ، هو الداء ، وأشد الأمراض فتكا بنفس الانسان :

فالمغرور : لا يصدق أنه سيموت فتراه يفعل فعل الخالدين :

والمغرور لا يصدق أنه سيبعث ويحاسب على عمله ، فتراه يتصرف تصرف الجبابرة ، الذين لا يخافون عقباها :

والمغرور لا يصدق أنه لا شىء ، فتراه ينظر إلى الناس على أنهم لا شىء وأنه هو وحده الشىء .

المغرور لا يصدق أنه جاهل ، فيفلسف الاشياء حسبما يتصور ، ويرى الناس جهالا ! .

والمغرور لا يصدق أن له إلهاً فوقه . قد خلقه ، وسوف يحاسبه على أعماله فتراه يتصرف على أنه هو السلطة العليا فى الأمور ! .

وها هو الله ينبه الإنسان إلى خطر الغرور على كيانه كله ، فيقول : يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ؟ ، الذى خلقك فسواك فعدلك ؟ فى أى صورة ما شاء ركبك ؟ .

إنه الشيطان يارب ، . الشيطان الذى غرنا بك ! ؟